

الرَّسَالَةُ ١١٠

أَغْبِيَاءٌ وَلَكْتَهُمْ أَذْكِيَاءٌ

(Arabic - As unwise, yet wise)

أحِبَّائِي.. حَدِيثَنَا الْيَوْمَ مَوْضُوعُهُ: أَغْبِيَاءٌ وَلَكْتَهُمْ أَذْكِيَاءٌ

وَمِنْ رِسَالَةِ بُولَسِ الرَّسُولِ إِلَى تَيْطُسِ الْأَصْحَاحِ الثَّالِثِ نَقْرًا الْأَعْدَادَ مِنَ الثَّالِثِ إِلَى الْخَامِسِ:

"لَأَنَّنَا كُنَّا نَحْنُ أَيْضًا قَبْلًا أَغْبِيَاءَ.. غَيْرَ طَائِعِينَ ضَّالِّينَ مُسْتَعْبِدِينَ لِشَهَوَاتٍ وَلذَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ.. عَائِشِينَ فِي الْخُبْثِ وَالْحَسَدِ.. مَمْقُوتِينَ مُبْغِضِينَ بَعْضُنَا بَعْضًا.. وَلَكِنْ حِينَ ظَهَرَ لَطْفُ مُخْلِصِنَا اللَّهُ وَإِحْسَانِهِ.. لَا بِأَعْمَالٍ فِي بَرٍّ عَمَلْنَاهَا.. نَحْنُ بَلْ بِمَقْتَضَى رَحْمَتِهِ.. خَلَصْنَا بِغُسْلِ الْمِيلَادِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ".^١

كثيرا ما نخلو بأنفسنا محاولين تقييم مواقف معينة مرّت بنا.. ونراجع كلاما صدرَ من أفواهنا.. وتصرفاتٍ معينةٍ بدرتَ منا.. ونتساءل: هل كان ما قلناه لايقًا أم غيرَ لائقٍ؟ وما قمنا به من ردِّ فعلٍ أكان جائزًا أم غيرَ جائزٍ؟. أيهما يصنعنا في مصافِّ الأذكياء.. وأيهما يجعلنا في مصافِّ الأغبياء؟. وعلى ضوء ما قرأنا من كلمة الله الواردة برسالة بولس الرسول إلى تيطس الأصحاح الثالث.. نستخلص الصفات التي تجعلُ منا أغبياءً وكذلك وسيلة التخلص منها: يقول بولس الرسول "لأننا كنا نحنُ أيضًا قبلًا أغبياءً".. ثم يسردُ الأمورَ التي كنا نعملها بغباءٍ.. كعدم الطاعة والضلال والاستعباد للشهوات واللذات التي يشتهيها الجسد والخبث والحسد والبغضة.

أما وسيلة الخلاص منها فيقول بولس الرسول: "إنها ليستُ بأعمالٍ في برِّ نعملها نحنُ بلْ هو عملُ الله مُخْلِصِنَا بِغُسْلِ الْمِيلَادِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ بِمَقْتَضَى رَحْمَتِهِ وَلَطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ".. هذا الاختبارُ ينقلنا من مصافِّ الأغبياء إلى مصافِّ الأذكياء.. والكتاب المقدس يُسجِّلُ قِصَصًا لِأَنَسٍ كَانُوا يَوْمًا أَغْبِيَاءَ.. تَصَدَّرُ مِنْهُمْ أَفْعَالٌ لِأَغْبِيَاءِ الَّتِي سَبَقَ ذَكَرُهَا.. وَلَكْتَهُمْ بَعْمَلِ النِّعْمَةِ الْمُخْلِصَةِ اسْتَحَالُوا إِلَى أَذْكِيَاءَ.. تَصَدَّرُ مِنْهُمْ أَقْوَالٌ وَأَفْعَالٌ مَرْضِيَّةٌ تَمَجِّدُ الْآبَ السَّمَاوِيَّ.. وَفِي عُجَالَةٍ قَصِيرَةٍ نَحْكِي مَا جَاءَ عَنْ ثَلَاثَةِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَرَدَ ذَكَرُهُمْ بِالْكِتَابِ.

الأول: وَيُدْعَى آسَافُ صَاحِبُ الْمَزْمُورِ الثَّالِثِ وَالسَّبْعِينَ.. وَفِيهِ يَتَحَدَّثُ عَنْ اخْتِبَارِهِ حِينَ كَانَ فِي حَالَةِ الْجَهْلِ وَعَدَمِ الْمَعْرِفَةِ. يَقُولُ: "أَمَّا أَنَا فَكَادَتْ تَزُلُّ قَدَمَايَ لَوْلَا قَلِيلٌ لَزَلْتُ خَطَوَاتِي لِأَنِّي غَرْتُ مِنَ الْمُنْكَبِرِينَ إِذْ رَأَيْتُ سَلَامَةَ الْأَشْرَارِ. لَيْسُوا فِي تَعَبِ النَّاسِ وَمَعَ الْبِشْرِ لَا يُصَابُونَ. جَعَلُوا أَفْوَاهَهُمْ فِي السَّمَاءِ وَالسِّينَتَهُمْ تَتَمَشَّى فِي الْأَرْضِ. وَقَالُوا: كَيْفَ يَعْلَمُ اللَّهُ؟ وَهَلْ عِنْدَ الْعَلِيِّ مَعْرِفَةٌ؟ هُوَذَا هَؤُلَاءِ هُمُ الْأَشْرَارُ وَمُسْتَرِيحِينَ إِلَى الدَّهْرِ يُكْتَرُونَ ثَرْوَةً". ثُمَّ يَحْكِي آسَافُ كَيْفَ أَدْرَكَ خَطَأَهُ حِينَ دَخَلَ مَقَادِسَ اللَّهِ فَيَقُولُ: "حَقًّا قَدْ زَكَيْتُ قَلْبِي بِاطْلًا وَغَسَلْتُ بِالنَّقَاوَةِ يَدِي. وَكُنْتُ مُصَابًا الْيَوْمَ كُلَّهُ وَتَأَذَّبْتُ كُلَّ صَبَاحٍ. لَوْ قُلْتُ أَحَدْتُ هَكَذَا لَغَدَرْتُ بِجِيلِ بَنِيكَ. فَلَمَّا قَصَدْتُ مَعْرِفَةَ هَذَا إِذَا هُوَ تَعَبٌ فِي عَيْنِي حَتَّى دَخَلْتُ مَقَادِسَ اللَّهِ وَانْتَبَهْتُ إِلَى آخِرَتِهِمْ حَقًّا فِي مَزَالِقٍ جَعَلْتَهُمْ. أَسْقَطْتَهُمْ إِلَى الْبُورِ كَيْفَ صَارُوا لِلْخَرَابِ بَغْتَةً. اضْمَحَلُوا فَنَوَا مِنَ الدَّوَاهِي. كَحُلْمٍ عِنْدَ النَّيْقِظِ يَا رَبِّ عِنْدَ النَّيْقِظِ تَحْتَقِرُ خِيَالُهُمْ".^٢

لقد انتقل آسافُ إلى مصافِّ الأذكياءِ اسْمَعُهُ يَقُولُ: "لأنه تمرمرَ قلبي وانتخستُ في كُلييتي وأنا بليدٌ ولا أعرفُ. صرْتُ كِهَيْمٍ عِنْدَكَ وَلَكْتِي دَائِمًا مَعَكَ. أَمْسَكَتَ بِيَدِي الْيُمْنَى. بِرَأْيِكَ تَهْدِينِي وَبَعُدُّهُ إِلَى مَجْدٍ نَأْخُذْنِي. مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ. وَمَعَكَ لَا أُرِيدُ شَيْئًا عَلَى الْأَرْضِ. صَخْرَةٌ قَلْبِي وَنَصِيبِي اللَّهُ إِلَى الدَّهْرِ. لِأَنَّهُ هُوَذَا الْبُعْدَاءُ عِنْدَكَ يَبِيدُونَ. أَمَّا أَنَا فَالاقْتِرَابُ إِلَى اللَّهِ حَسَنٌ لِي جَعَلْتَ بِالسَّيِّدِ الرَّبِّ مَلْجَأِي لِأَخْبِرَ بِكُلِّ صَنَائِعِكَ".^٣

أما الثاني: فهو زكا الذي جاء ذكره بإنجيل لوقا الأصحاح التاسع عشر.. شارك في تقديم خدماته لأعداء قومه الرومان المحتلين لبلاده لا لتقديم خدمة جليلة للشعب.. بل لاستغلالهم وابتزاز أموالهم.. كان رئيساً للعشارين وهم جباة الضرائب.. وكان الشعب ملزماً بدفعها ولو من قوتهم الضرورية.. وكان العشارون ينهبون الشعب بحجة جمع الضرائب.. واستغلوا وظيفتهم استغلالاً دنيئاً.. ولم يكن الرومان يهتمون إلا بالحصول على أكبر قدر من المال لخزائنتهم.. وكان زكا واحداً من هؤلاء الذين اغتوا من المال الحرام.

أدرك زكا أنه سلك مسلكاً غيبياً وسارع لينضم إلى صفوف الأذكياء.. فحين جاءت الأخبار السارة عن يسوع المخلص.. "طلب أن يراه ليعرف من هو".. لأن يسوع كان مزمعاً أن يمر من ذلك المكان.. كان جمعٌ غفيرٌ حول الرب ولم يستطع رؤيته لأنه كان قصير القامة.. فركض متقدماً وصعد إلى جُميزة لكي يراه.. فلما جاء يسوع إلى المكان نظر إلى فوق فراه وقال له: "يا زكا أسرع وانزل لأنه ينبغي أن أمكث في بيتك.. فأسرع ونزل وقبله فرحاً".. تدمر الجمع على يسوع لأنه دخل بيت زكا الخاطيء^١.

ولكن زكا في ذلك الوقت كان قد رجع إلى نفسه نادماً وشعرَ بخطئه إذ اختار طريق الهلاك.. وأدرك أنه الآن أمام رب الحياة.. ففتح قلبه ليستقبل النور.. وأسرع لتغيير مساره الخاطيء.. وقال ليسوع: "ها أنا يا رب أعطى نصف أموالى للمساكين.. وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف". فقال له يسوع: "اليوم حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضاً ابن إبراهيم.. لأن ابن الإنسان قد جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك"^٢.

وثالث: الرجال الأغبياء ولكن هم الأذكياء هو بولس الرسول.. الذى كتب فى رسالته إلى تيطس يقول: "لأننا كنا نحن أيضاً قبلاً أغبياء". ويحكى عن ماضيه فى رسالته إلى غلاطية قائلاً: "فإنكم سمعتم بسيرتى قبلاً فى الديانة اليهودية أنى كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها". ويصرح لتلميذه تيموثاوس بالقول: "أنا الذى كنت قبلاً مُجدفاً ومضطهداً ومفترياً ولكنى رُحمت لأتى ففعلت بجهل فى عدم إيمان". هذا المفتري تحول إلى النقيض بقوة الله وعمل نعمته المخلصة.. وعند محاكمته أمام الملك أغريباس تحدث عن ظهور الرب له وكيف صار مسيحياً قال: "لما كنت ذاهباً إلى ديمشق بسُلطان ووصية من رؤساء الكهنة رأيت فى نصف النهار فى الطريق أيها الملك نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولى وحولَ الذاهبين معى"^٣.

ثم استطرده بولس يحكى باقى اختباره قائلاً: "فلما سقطنا جميعنا على الأرض سمعنا صوتاً يكلمنى ويقول: "شاول! شاول! لماذا تضطهدنى؟! صعب عليك أن ترفض مناخس". فقلت أنا: "من أنت يا سيد؟". فقال: "أنا يسوع الذى أنت تضطهده. ولكن قم وقف على رجلك. لأتى ظهرت لك لأنتخبك خادماً وشاهداً بما رأيت وبما سأظهر لك به. منقاداً إليك من الشعب ومن الأمم الذين أنا الآن أرسلك إليهم. لتفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلمات إلى نور. ومن سلطان الشيطان إلى الله. حتى ينالوا بالإيمان بى غفران الخطايا ونصيياً مع القديسين" يقول بولس الرسول: "لأننا كنا نحن أيضاً قبلاً أغبياء" ولكن بولس الرسول بنعمة الله صار فى قمة الأذكياء!^٤

أخى القارئ العزيز: أتمنى أن تكون قد اختبرت نعمة الله المخلصة أو أنك قد عرمت الآن لتختبرها. لقد كنت محسوباً ضمن هؤلاء الذين كانوا قبلاً أغبياء. ولأنتى قبلت بالإيمان نعمة الله المخلصة أصبحت معدوداً بين الأذكياء لأننى نلت بالمسيح غفراناً لخطاياى وسكن الروح القدس فى وضممت الحياة الأبدية.. مجدداً لاسميه.

أدعوك أختي لتشارك معى فى تلك الصلاة: أبانا السماوى.. أسألك صفحاً وغفراناً لما اقترفت من أثم.. اعترف أنتى فعلتها بجهل وغباوة وعدم معرفة.. أشرك إلهى على قلبى بنورك السنى الوضاح.. وافتح ذهنى لكلامك الحى الفعال.. ليتلاشى منى كل جهل وعدم معرفة.. واملأنى فهماً وحكمة لأحيا بك ولك ليتجد اسمك.. أرفع صلاتى فى اسم ربنا يسوع.. وأشرك إلهى لأنك تستجيب لى يا من قلت: من يقبل إلى لا أخرجته خارجاً.

أخى القارئ العزيز.. إن أردت سماع تلك الرسالة أو غيرها ستجد ذلك فى:

<http://www.muhammadanism.org/Media/Audio/BetterLife/Default.htm>

^١ إنجيل لوقا ١٩: ١ - ٧

^٢ إنجيل لوقا ١٩: ٨ - ١٠

^٣ رسالة بولس الرسول إلى غلاطية ١: ١٣، رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ١: ١٣، سفر أعمال الرسل ٢٦: ١٢ - ١٣

^٤ سفر أعمال الرسل ٢٦: ١٤ - ١٨